المرأة والحضارة

دفاع امرأة عن النساء من الرجال

صدّرت مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية احد اعدادها الاخيرة بمقالة شائقة عنوانها المرأة والحضارة للكاتبة مسز وبستر فلخصنا دفاعها على قدر ما يحتمل المقام . قالت :

اغرب مظاهر القوة المدركة في الرجل جهلهُ العميق القرار للمرأة وما يتعلق بها. فقد ابدى علماً فائقاً في كل موضوع طرقهُ من الاميبا (ادنى الانواع الحيوانية) فما فوق . وكشف النقاب عن طبائع النحل والزنابير والنمل وما لها من المنافع والمضارّ . اما عقل المرأة التي ما فتئ يعاشرها منذ نحو مئة الف سنة والغرض الذي خلقت لهُ فمن الموضوعات التي يظهر انهُ لم يقدر لهُ حلها واكتناه وجهها. فتارة يشيد بها حتى يرفعها الى السماك وطوراً يسقطها الى الارض تتمرغ في التراب. وآونة يقول انهُ يجب ان تكون ملكة واخرى خادماً لقضاء اوطاره. وحيناً انها كوكبهُ الهادي وآخر انها القيد الذي يقيد نفسهُ الطامحة الى العلاء

واذا رجعنا الى كتابات اعظم المفكرين من الرجال في جميع العصور وجدنا انهم لم يختلفوا على مسئلة اختلافهم على مسئلة المرأة وتكاد جميع آرائهم فيها تكون مخطئة. فمنهم رجال غاصوا الى قرار المسائل النفسية وقاسوا اعماقها ورجال تعمقوا في عقولهم واعماقهم وعلومهم ولكنهم كانوا اذا طرقوا مسئلة المرأة ابدوا جهلاً يدعو الى العجب

كنت بالامس اطالع كتاباً ضخماً عن اقوال مشاهير الرجال وآرائهم في المرأة فما وجدت فيهِ سوى بضعة اسطر تدلُّ على الراي الخير . وربما كان ابعدها عن الحق قول ديدرو سنة ١٧٧٢ «وبينا نراهنّ في الظاهر اكثر حضارة منا فقد بقين همجاً في الباطن ». ومثل هذا القول قول جورج مرديث في بعض رواياتهِ «اري ان المرأة ستكون آخر شيء يهذّبهُ الرجل »

وعندي ان مسافة البعد بين المرأة المتمدنة والمرأة الهمجية الاولى اعظم مما لا يقاس من مسافة البعد بين الرجل المتمدن والرجل الهمجي الاول. ولادراك

ذلك لنفرض ان رجلاً انكليزياً وامرأتهُ من اهل الطبقة المتعلمة أُرجعا الى العصور الاولى وانزلا الكهوف التي كان الانسان الاول يسكنها واعطيا قوة التفاهم مع اهلها — لو فعلنا ذلك لوجدنا ان الرجلين رجل العصر الحجري ورجل القرن العشرين يهتديان حالاً الى شيء مشترك بينهما فلا تمضي دقيقتان حتى تراهما مثلاً يتباحثان في مزايا السهام التي رؤوسها حجارة او مزايا المقذوفات الاخرى في صيد بعض حيوانات العصر الحجري . او يتباحثان في المصاعب التي تعرض لانسان العصر الحجري في تربية بعض حيواناته المستأنسة والتي تعرض لانسان هذا العصر في تربية بقره . ثم لا تلبث ان تراهما يمشيان كتفاً الى كتف وفي ايديهما الادوات الصوانية لتنص الحيوانات

اما المرأتان فاذا يكون من امرهما وكيف تتوازن بردم الهوة الكبيرة التي فتحتها الحضارة بينهما . ارى ان امرأة القرن العشرين تنظر قليلاً الى العقد الذي تلبسهُ صاحبتها وهو مؤلف من عظام السمك وتبدي اعجابها به تجملاً . وان امرأة العصر الحجري تبدي اعجابها بثوب صاحبتها المفصل على آخر زي باريسي ثم يعقب هذا الاعجاب المتبادل القصير الاجل سكوت لا تريان منهُ محيصاً . وخصوصاً اذا جاءت امرأة العصر الحجري باولادها لتراهم ضيفتها او جاءت بحيفة لفدائها

ومغزى هذا كلهِ ان الاعمال التي كانت امرأة الكهف تعملها وهي اعمال مادية صرفة لا تقع موقع الرضى عند المرأة الحديثة اما الرجل الحديث فما فتىء كلفاً باعمال رجال الكهوف وطرقهم ولم تفقد هذه الاعمال طلاوتها في عينهِ على مرّ العصور والادهار

طبيعة الرجل

ان افضل الرجال العصريين لا يزالون على الفطرة الاولى وهذا من الغرابة بمكان . ومن الخير ان يكونوا كذلك لان سلوكهم هذا مبنيٌّ على سليقة تعود بالفائدة عليهم وهي سليقة المحافظة على النفس وحبّ البقاء وهم يعلمون ان المحافظة على بعض الغرائز الاصلية هي افضل الوسائل للمحافظة على رجولتهم . ويعلم المربّون ان قسماً كبيراً من عمل تربية الصبيان قائم بتحويلهم عن الفطرة الوحشية الاولى وبث روح الحضارة في نفوسهم غصباً . والصبي يخاف وهو في المهد القيود الصناعية التي يقيدهُ الاجتماع بها فيكره ان تغسل يداه ويمشط شعرهُ ويلبس

احسن ثيابه ويؤخذ الى حفلة من الحفلات. واذا بلغ الثانية عشرة من سنه وكان متمتعاً بعافيته وجدناهُ على الغالب لا يزال على شيء من الفطرة الوحشية يغالب كل سعي يبذل لتمدينه. ولو ترك لنفسه يختار عملاً لاختار على الغالب الحرف التي كانت للرجل الاول كالصراع والفروسية وتجشم الاسفار البحرية والفلاحة والاعمال الصناعية الشاقة. وغاية ما يتمناهُ معظم صبيان المدارس ان يكونوا سوّاقين في قطرات سكة الحديد. قال لي صبيٌّ جميل الطلعة ذات يوم اتمنى ان اكون سائق قطر قذر الملابس وهذا ما يبغض السماء اليّ.

واقوى الغرائز في الرجل الانكليزي ان يتناول المسائل الحسية لا المعنوية. وهو محقٌّ الى حدٍّ محدود. واسعد هيئة في حياة اي رجل الآن لا تزال كما كانت في عهد الرجل الحجري وهي ان يعيش قريباً من الطبيعة وتكون حياتهُ حياة عمل لا حياة تفكير وتأمل. واذا بالغنا في تربية رجل ما ورفع مستواها افسدناهُ غالباً لانهُ اذا ترك الفطرة الاصلية بكليتها فقد ينحط ويفسد. راجع تاريخ العالم تجد ان افضل الرجال هم الرجال الذين كانوا اقرب الى الرجل الاول اي الرجال الذين انفوا الترف ولم يبالوا بالفنّ الجميل او الفكر المجرّد الاّ عرضاً. فقد صدق كاتو حيث قال متكهناً ان ادخال الفنون الى السلطنة الرومانية يفضي الى سقوطها كما افضى الى سقوط اليونان قبلها. فان اليونان تركوا حياة البساطة البربرية القديمة واتبعوا الحياة الفكرية فخضعوا لرومية. ثم لما أُعديت رومية بعدوى الادب والعلم اصابها ما اصاب سابقتها. ومما قالهُ كاتو واصاب فيهِ ان السلاح والحرب هما حرفتا الرجل الحقيقيتان وهذا كان ايضاً رأي نبوليون لما جمع الحمير والعلماء بين قوسين

واعظم الشواهد على صحة هذه القاعدة رجال الانكليز. فان معظم عظمائهم صالحين كانوا او طالحين مثل الملك رتشرد الاول وكرومول وورن هستنس وكليف ونكلسن وغوردن كانوا رجالاً على الفطرة القديمة في حين ان كثيرين من كبار المفكرين بيلنا مثل كيتس وبيرون وسوذي وكوبر وكرليل ورسكن ودكونسي وروستي كانوا ابلهٍ رجالاً شاذي الطباع او من اهل الفجور. ومن غريب ما يشاهد انهُ قلما يجتمع في رجل واحد القدرة على التعبير عن افكار سامية والقدرة على التخلق باخلاق الرجال. والقاعدة هي ان كبار المفكرين الذي سلموا من الفساد

والانحطاط صعدوا الى عمل اولي محافظة على توازنهم العقلي كما صعد غلادستون مثلاً الى تقطيع الحطب

قال اعظم فلاسفة الانكليز وصدق فيما قال « ان بين النوابغ والمجانين صلة قربى » . وهذا اصدق ما يكون على الانكليز انفسهم . وما على الواحد منا الاّ ان يلقي نظرة على صور مشاهير كتابنا ومصوّرينا ويقابلها بصور رجال العمل فينا من قواد في البر والبحر ومكتشفين ومصارعين ليدرك ان معيشة الخيال ليست اكثر المعايش انطباقاً على الانكليز . ويجد بالمقابلة ان رجال الفئة الثانية اجمل ابداناً واقوى بنية وان في وجوههم من المعاني ودلائل النزوع الى العلاء ما ليس في وجوه الفئة الاولى. ويعتقد الرجال انفسهم ان الرجل احسن ما يكون وهو على طبيعته الاولى بدليل ان كبار الكتّاب مثل دكنز وسكوت وثكري وبيرون وستيفنسن وكبلنغ جعلوا ابطال رواياتهم رجالاً على الفطرة الاولى

طبيعة المرأة

ربّ سائل يسأل ما هو اذاً مقام المرأة في هذه الحياة الدنيا فاقول : لا ريب ان المرأة مغبونة من الوجهة الفسيولوجية اذا قيست بالرجل. فانها اضعف عضلاً منهُ وحواسها اقل شعوراً من حواسهِ اي ان الرجل احكمُ بصراً منها فلذلك يفوقها في الصيد ولعب البلياردو . وذوقهُ اصدق من ذوقها فلذلك كان اكثر تانقاً وتمتعاً منها في طعامهِ . وقس على حاستي البصر والذوق سائر الحواس . وبعبارة اخرى ان المادة تسرّ اليهِ باكثر مما تسرّ الى المرأة فلذلك تدر ان تجاريهُ في امورها . وهذا الفرق يظهر بجلاء منذ الطفولة . راقب سرباً من الاولاد في شارع المدينة تجد الصبيان يتطالون باعناقهم مثلاً الى الآلة المحركة في الاتوموبيل ليعلموا سرّها وتجد البنات ينظرن الى البضاعة المعروضة في شبابيك الدكاكين ليتمتعن العين بها.ثم راقب سرباً آخر من الاولاد في الحقول تجد البنات مكبات على اقتطاف الازهار والصبيان مشغولين بالنظر الى قطار مارّ . وهذا يدلنا على ان الرجل عمليّ ماديّ في فطرتهِ وان المرأة مفطورة على حب الفن الجميل وكل ما لهُ علاقة بالعواطف وهي معنوية

ولذلك تفوّق الرجل على المرأة في استعمال الآلات وحذق الصناعات المختلفة دونها حتى طبخ الطعام . اما المرأة ففاقت في المسائل التي تتوقف على العمل

والبداهة وحاسة القن الجميل. اي ان الطبيعة جهزت كلَّ فريق بالحواس المطابقة لحاجاته .قال ديفو سنة ١٦٩٨ عن النساء « لا استطيع ان اتصوَّر ان الله القادر على كل شيء ميَّزهنَّ بالرقة وابدع في تكوينهنَّ واسبغ عليهنَّ محاسن جمة وجعلهنَّ فتنة للعالمين ونفخ فيهنَّ ارواحاً يستطعن بها ما يستطيع الرجال — كل هذا ليكنَّ قهرمانات في منازلهنَّ وطباخات وإماء»

وحب المرأة للتمدن لا يدانيهِ شيءٌ الاَّ كره الرجل لهُ . لذلك تجد البنات في المدارس مهتمات كل الاهتمام بعملهنَّ فيها وقلما يشعرن بكره لمعلماتهن كما يشعر الصبيان بل بالعكس من ذلك يبالغن في حبهن. واذا بالغ صبيٌّ في الاهتمام بدروسهِ نبزهُ رفاقهُ بما شاؤوا من الالقاب المستهجنة . اما البنت التي تفوق رفيقاتها فينظر اليها بعين الاعجاب الكثير. ولو خيرت امرأة عاقلة في عمل تعملهُ لا لتكسب منهُ رزقها بل لمطابقتهِ لطوى نفسها ما اختارت حرفة من الحرف الاولية التي تحترفها النساء عادة كالطبخ والخياطة وتربية الاولاد بل لاختارت ان تكون مصورة بالفوتغراف او بآلة برانيط بل مصورة باليد او ممثلة اي انها تختار حرفة تستعمل دماغها وعواطفها وحاسة الجمال فيها على حرفة تستعمل بها يديها فقط

وقد يقول قائل انها قلما تفوقت في هذا الباب اي اننا قلما سمعنا بنساء برزن في الشعر والتصوير والتمثيل وما اشبه. ورداً على ذلك اقول انهُ يرجح ان دماغ المرأة اقل ابداعاً من دماغ الرجل ولكن اثبات ذلك بدليل لا يقبل اعتراضاً يستلزم ان يكونا في محيط واحد وان تكون الاحوال التي يعيشان فيها واحدة . وهذا ما لم يجرب على نطاق واسع بحيث تأتي التجربة بنتائج قاطعة . فان تعليم المرأة دون تعليم الرجل في صفتهِ ومقداره .واختبارها لامور هذه الدنيا اضيق دائرة فيستحيل والحالة هذه المقابلة بين صفة عملها وصفة عمل الرجل . والسبب الاكبر في قلة من نبغ منهنَّ في الشعر هو انهُ قلَّ من قضت منهنَّ وقتاً يذكر في درس الكتابات القديمة من شعر ونثر في حين ان كبار الشعراء لم يتركوا شعراً قديماً الاَّ قتلوهُ درساً وحفظاً . وهكذا قل في قلة من كتب الروايات منهنَّ

وقد خرج الرجال الى العالم واختلطوا ببني جنسهم وجلسوا في الحانات يدرسون الطبيعة البشرية وتنازعوا البقاء وصارعوا الحياة وتمرَّسوا بالشهوات والعواطف الانسانية فعرفوها وجهاً لوجه ووثقوا بمرى الصداقة مع النساء على

قدر لم تستطعهُ الكاتبات مع الرجال . وجميع الكتب الكبيرة التي كتبها الرجال انما هي نتيجة هذا الاختبار . اما النساء فكنَّ قعيدات منازلهنَّ بعيدات عن لغط المعيشة ودخائلها الاَّ القليلات منهنَّ فلا عجب والحالة هذه اذ كانت الروايات التي الفنها خالية مما في روايات الرجال من قوة الفكر وامتداد الخيال وسعة الحيلة. هل ان ما يعوز المرأة من قوة الفكر تعيضهُ بقوة البديهة .فاذا اخفقت في بيان سرد حادثة تفوقت في حسن رسمها وتصويرها للصفات والاخلاق وفهمها للمواطف (ستأتي البقية)

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

نسيج العنكبوت وفائدتهُ

قرأنا في كتاب طبي انكليزي ما ترجمتهُ : « اشتهر نسيج العنكبوت منذ القدم بفائدتهِ في ايقاف نزف الدم السطحي . وقد قال الدكتور جراهم انهُ علاج عظيم النفع في الملاريا ويخفف بطريقة مدهشة كلَّ انفعال جسمي او عقلي ناشئين عن مرض ويعالج بهِ النبض السريع الشديد غير المنتظم فيصير بطيئاً هادئاً منتظماً . وكثيراً ما يفعل في التسكين ما لا يفعل الافيون والبنج ولهذا كثر استعمالهُ في علاج السل المتقدم والازما والهستيريا المزمنة وغيرها من الامراض »

وقد قصَّ الدكتور جكسن حكاية اصابة غريبة بالازما ظهر فيها نفع نسيج العنكبوت كلَّ النفع . ذلك ان الاصابة كانت وراثية ناشئة عن تشوه خلقي في الصدر ولم يكن المصاب يستطيع الاضطجاع للنوم خشية الاختناق فكان ينام قليلاً وهو جالس في فراشهِ وحواليهِ المساند والمخدات تسندهُ .فوصفت لهُ ٢٠ قمحة من نسيج العنكبوت يأخذها جرعة واحدة فنام نوماً عميقاً طول ليلته ولم يكن قد نام كذلك منذ شهر ونصف